بلاط الشهـــداء

بعد ألف ومائتى عام

— ٨ —

تتمـــة

ويقول السير ادوارد كريزى : « إن النصر العظيم الذى ناله كارل مارتل على العرب سنة ٧٣٢ وضع حدا حاسما لفتوح العرب فى غرب أوربا ، وأنقذ النصرانية من الاسلام ، وحفظ بقايا الحضارة القديمة وبذور الحضارة الحديثة ، ورد التفوق القديم للأمم الهندية الأوربية على الأمم السامية »(١) ويقول فون شليجل فى كلامه عن الاسلام والأمبراطورية العربية : « ما كاد العرب يتمون فتح أسبانيا حتى تطلعوا الى فتح غاليا وبورجونيا . ولكن النصر الساحق الذى غنمه بطل الفرنج كارل مارتل بين تور وبواتيه وضع لتقدمهم حدا ، وسقط قائدهم عبد الرحمن فى الميدان مع زهرة جنده ، وبذا أنقذ كارل مارتل بسيفه أمم الغرب النصرانية من قبضة الاسلام الفتاكة الهدامة الى الذروة »(٢) ويقول رانكه : « إن فاتحة القرن الثامن من أهم عصور التاريخ ، ففيها كان دين محمد ينذر بامتلاك إيطاليا وغاليا ، وقد وثبت الوثنية كرة أخرى الى ما وراء الرين ، فنهض إزاء ذلك الخطر فتى من عشيرة جرمانية هو كارل مارتل ، وأيد هيبة النظم النصرانية المشرفة على الفناء بكل ما تقتضيه غريزة البقاء من عزم ، ودفعها الى بلاد حديثة »(٣) . ويقول زيلر « كان هذا الانتصار بالأخص انتصار الفرنج والنصرانية ، وقد عاون هذا النصر زعيم الفرنج على توطيد سلطانه لا فى غاليا وحدها ولكن فى جرمانيا التى أشركها فى نصره »(٤) : « على أن هنالك فريقا من مؤرخى الغرب لا يذهب الى هذا الحد فى تقدير نتائج الموقعة وآثارها ومن هذا الفريق المؤرخان الكبيران سسموندى وميشليه . فهما لا يعلقان كبير أهمية على ظفر كارل مارتل . ويقول جورج فيلى : « ان اثرة الكتاب الغاليين قد عظمت من شأن تغلب كارل مارتل على حملة تافهة من عرب أسبانيا ، وصورته كانتصار باهر ونسبت خلاص أوربا من نير العرب الى شجاعة الفرنج فى حين أن حجابا القى على عبقرية ليون الثالث امبراطور (قسطنطينية) وعزمه مع أنه نشأ جنديا يبحث وراء طالعه ولم يكد يجلس على العرش حتى احبط خطط الفتح التى أنفق الوليد وسليمان طويلا فى تدبيرها »(٥)

ونحن مع الفريق الاول نكبر شأن بلاط الشهداء ايما اكبار ، ونرى انها كانت أعظم لقاء حاسم بين الاسلام والنصرانية ، وبين الشرق والغرب ، ففى سهول تور وبواتييه فقد العرب سيادة العالم بأسره وتغيرت مصائر العالم القديم كله وارتد تيار الفتح الاسلامى أمام الامم الشمالية كما ارتد قبل ذلك باعوام امام اسوار قسطنطينية واخفقت بذلك آخر محاولة بذلتها الخلافة لافتتاح امم الغرب واخضاع النصرانية لصولة الاسلام ، ولم تتح للاسلام المتحد فرصة أخرى لينفذ الى قلب اوربا فى مثل كثرته وعزمه واعتزازه يوم مسيره الى بلاط الشهداء . ولكنه أصيب قبل وبعد بتفرق الكلمة ، وبينما شغلت اسبانيا المسلمة بمنازعاتها الداخلية ، اذ قامت فيها وراء البرنيه امبراطورية فرنجية عظيمة موحدة الكلمة تهدد الاسلام فى الغرب وتنازعه السيادة والنفوذ ؟

محمد عبد الله عنان

(١) Decisive Battles

(٢) Philosophie der Gesoleciiete

(٣) History of the Rebormation

(٤) Hist. de L,Aelmagne

(٥) Agyptine Empire

المستشرق برجستريسر

(Gotthelf Bergstraesser)

٥ ابريل سنة ١٨٨٦ — ١٨ أغسطس سنة ١٩٣٣

للدكتور اسرائيل ولفنسون

مدرس اللغة العبرية بكلية الآداب

وقع نظرى أثناء مطالعتى فى الجرائد اليومية التى وصلتنى من المانيا على خبر لم يوضع فى مكان بارز كأنه ليس من الاهمية فى شىء ، وورد فيه نعى جوتهلف برجستريسر أستاذ اللغات السامية بجامعة ميونيخ ، سقط أثناء رحلة رياضية فى جبال الالب من قمة جبل جلوكنر الى هاوية توفى فيها على الفور ، لو وقع هذا الحادث منذ سنوات قليلة لكان قد وضع فى مكان أبرز ، وعلى حالة تلفت القراء أكثر مما هو فى جرائد هذه الايام ، لأن المانيا الحالية ليس فيها من يعبأ كثيرا بمن توفى من العلماء المستشرقين ، ولكنى روعت لهذا الخبر الذى أدمى قلبى وملأه حزنا وأسى

كان علم الاستشراق قد قطع شوطا بعيدا فى أواخر القرن الماضى فى جامعات اوربا على العموم ، وفى المانيا خاصة حتى وصل ببحوث نولدكه وجولدسيهر ويت وبستنفلد وليتش وغيرهم الى اوج مجده ثم أخذ بعد انتهاء الحرب العظمى ينحدر من قمة الجبال الى بطون الوهاد ويتضاءل شيئا فشيئا

ويجب ان يلاحظ ان الحرب العالمية قد أدت الى انحطاط العلم على العموم فى اوربا ، لأن التفكير الجدى والقراءة الدقيقة انقطع عنهما الشباب الذى أخذ يميل الى البحوث السطحية والى اكتساب العلم عن طريق الراديو والسينما ، كما انتشر فى الجامعات توغل جمهرة الطلبة فى الشؤون السياسية والحزبية اكثر من توغلهم فى البحوث العلمية

وقد توفى من خيرة الاساتذة المستشرقين (جولدسيهر ونولدكه شبيجلبرج وبيجر وهوردیتس) دون أن يأتى غيرهم فيملأ الفراغ الذى تركوه فى شتى العلوم التى كانوا يضحون حياتهم فى سبيلها . واما الآن فنجد عددا غير قليل من الاساتذة يملأون أروقة الجامعات فى المانيا وهم من الذين يناصرون الحزب الذى يقبض الآن على ناصية الحكم فى البلاد . . . هذه الافكار أخذت تقلق بالى فى تلك اللحظات التى قرأت فى الجرائد الالمانية عن وفاة العالم برجستريسر

نشأ الأستاذ برجستريسر فى أسرة المانية مسيحية بروتستانتية وكان ابوه وجده قسيسين فى مدينة بلون Plauen من أعمال زكسن Sachsen بألمانية ، ومن هنا يسهل فهم سبب عناية والديه بتربيته الدينية فى المدرسة الابتدائيه والثانوية ، اذ أرادا أن يحقق امنيتهما حتى يكبر تقيا ويصبح صالحا لرداء الكهنوت ويكون خير خلف لخير سلف ، ولكن اجوتهلف برجستريسر مال عن هذه الرغبة الى البحث فى اللغات السامية والعلوم الاسلامية حين دخل فى جامعة ليبزج Leipzig فى سنة ١٩٠٤ وقد درس آداب اللغة العربية عند العالم أوجست فيشر الذى يعتبر الى يومنا الحالى من قادة النقاد لدى جمهرة المستشرقين ، وقد أثرت روح النقد فى برجستريسر حتى أضحت على كر الزمن من ميزاته البارزة لا فى الكتابة والقاء المحاضرات فحسب ، بل اثناء محادثاته العادية مع محدثيه كانت لاتفوته كبيرة أو صغيرة دون أن يتعرض لها اذا وجد مجالا للمعارضة أو الانتقاد

ونذكر بهذه المناسبة ان فيشر — شيخ النقاد — كان على الدوام ينتقد بكل شدة مؤلفات المستشرقين حتى هابه عظماء العلماء فى العصر الحاضر ، على ان فيشر لم يؤلف المؤلفات الكبيرة كما فعل العلماء الذين انتقد مصنفاتهم بل كان يكتفى بوضع المقالات ، وأخذ بعض العلماء يهزأون به ويقولون ان فيشر لايحب أن ينشر كتبا خوفا من شبح النقد وانتقام النقاد ، ومن اكبر عيوب أوجست فيشر انه بدأ بدون جملة كتب فى موضوعات شتى منذ سنين كثيرة ولم ينته منها ، اذ من المعلوم انه يعمل منذ ثلاثين سنة فى تأليف قاموس عربى على دقيق للشعر العربى القديم لم يطبع الى الآن ، وكذلك بدأ فى مراجعة جملة مخطوطات لكتاب المغازى للواقدى منذ امد بعيد والى الآن لم ينته منه أيضا . وكان كاتب هذه السطور قد التقى بالأستاذ فيشر فى مدينة فينا فى مؤتمر المستشرقين فى سنة ١٩٣٠ فعرض عليه أن يتم مراجعة بقية الأجزاء من كتاب المغازى للواقدى ، فلما سمع فيشر اقتراحه بدا اضطراب على وجهه وسكت طويلا كانه لم يتمكن من أن يبوح بكلمة ، ثم أجاب بعد تفكير طويل : أمهلنى حتى أفكر مليا فى هل أكمل الكتاب أم أقدمه اليك مع جميع المخطوطات والصفحات التى بدأت بمراجعتها . . . فلما قصصت حكاية المقابلة مع فيشر للأستاذ برجستريسر ابتسم ابتسامته الحلوة قال : فيشر لن يرسل اليك الصفحات التى راجعها أبدا كما لن يخبر أنه عزم على أن لايتم الكتاب . .

على أن فيشر كان قد درب فى جامعة ليبزيج تحت أشرافه عددا لايستهان به من العلماء حتى أصبحوا من فحول المستشرقين فيما بعد ، وكان بينهم الأستاذ جوتهلف برجستريسر .

وبعد أن أتم برجستريسر دراسته الجامعية وقدم رسالة عن حروف النفى وأسماء الاستفهام فى القرآن الكريم فى سنة ١٩١١ قام برحلة إلى الأقطار الشرقية فى سنة ١٩١٣ فزار الاناضول وسورية وفلسطين ومصر وما كاد يصل الى ألمانيا من هذه الرحلة المباركة حتى بدأت الحرب العظمى فدعى إلى ساحة القتال . وظل متنقلا مع الجيش الالمانى فى أرض بلجيكا وفرنسا الى أن دعته الحكومة التركية فى سنة ١٩١٥ لالقاء محاضرات فى جامعة الأستانه ، وكان أول عهده بلقب أستاذ ، وقد بلغ حينئذ العام الثلاثين من حياته ، ولما ذاع صيته دعى لالقاء محاضرات فى جامعات المانيا فى العلوم الاسلامية واللغات السامية كانت أولها جامعة كونسبرج فى سنة ١٩١٩ وفى عام ١٩٢٢ انتقل الى جامعة برسلو ومنها الى جامعة هيدلبرج فى سنة ١٩٢٤ ثم دعى إلى مدينة ميونيخ . سنة ١٩٢٦ التى ظل يدرس بها الى أن أدركته المنية .

***

تنقسم مؤلفات برجستريسر الى أربعة أنواع أصلية نوع يشتمل كتبه عن اللغة العربية وعلم اللغات السامية ، ونوع آخر يبحث فى الأرامية ولهجاتها ، ونوع ثالث يحتوى على مصنفاته ومطبوعاته فى الآداب العربية والعلوم الاسلامية ، وأما النوع الرابع فيشمل مقالاته عن علوم اللغة التركية .

على العموم تمتاز كتابة برجستريسر بدقة الجمل القليلة فى ألفاظها ، الكثيرة فى معناها ، يعبر عما يجول فى خاطره بعد تفكير

طويل، وبعد احاطة بالموضوع من جميع نواحيه، والمام شاق بجميع المراجع الكبيرة والصغيرة مع استعمال الادلة العلمية الدقيقة، مما يجعل القارىء يحتاج الى قراءة الكتاب بأناة حتى يقف على النظريات الغزيرة

ومن أهم ما دون برجستريسر في حياته: كتابه عن قواعد اللغة العبرية، ومما لاشك عندنا أنه اخطر كتاب في موضوعه منذ بدأ البحث في علوم الامم الشرقية على الطريقة العلمية المألوفة عند الافرنج، وقد أظهر المؤلف في هذا المصنف أنه وقف على جميع النظريات التي الفت في هذه المادة في جميع العصور بين كتب ومقالات معروفة ومهجورة، وهذا المام يندران يوجد بين علماء اليهود أنفسهم

ومع أن كتابه هذا وضع لجمهرة الطلبة في الجامعات فانه لم يستعمل كثيراً بين هؤلاء لأنهم لم يتمكنوا من فهمه وادراكه حق الادراك، لذلك اصبح كتاباً للاساتذة والمدرسين في المعاهد العليا كما هو شأن جميع كتب برجستريسر التي انحصر تداولها بين أيدي الذين نضجت عقولهم وتمرنوا على مطالعة الموضوعات العويصة والكتب الفنية الدقيقة

وله كتاب آخر سمي المدخل الى اللغات السامية

[Einfuhrung in die semitischen Sprachen]

ويجب أن يلاحظ أنه بعد أن نشر مصنف نولدكه عن اللغات السامية، وكتاب بروكلمان الكبير عن الموازنة بين قواعد اللغات السامية جاء برجستريسر واضاف كتاباً جديداً في هذه المادة، وكان الناس يتوقعون أنه لا يأتي بجديد. ولكن ظهور الكتاب ازال كل اثر لتلك المخاوف، اذ جاء جديداً في اسلوبه، فياضا في نظرياته، ثائراً على القديم، يلقي أحكامه الجديدة ويهدم قضايا مألوفة ومعروفة

وله كذلك كتاب في جغرافية اللغة في سورية وفلسطين

(Sprachatlas fuer Syrien und Palaestina)

وضعه لاغراض عملية لرجال الجيش الالماني في البلدان العربية أثناء الحرب العظمى

وقد ذكرنا رحلة الاستاذ برجستريسر الى البلدان الشرقية، وكان قد أقام مدة من الزمن في دمشق بحث فيها بحثا علميا دقيقا عن اللهجة العامية في دمشق، كما وجه عناية شديدة الى البقية الباقية من الارماط السريانية التي تقطن في المعلولة وهي ضاحية من ضواحي دمشق. وصنف رسالتين احداهما عن اللهجة السريانية عند اهل معلولة والأخرى عن الروايات الخرافية الجديدة عند الأراميين

على أن الاستاذ برجستريسر وجه جل عنايته الى البحث في العلوم الاسلامية والعربية، وكانت باكورة مصنفاته في هذه المواد رسالته عن حنين بن اسحق ومدرسته، ومما لا شك فيه أن الذين يكتبون عن الفلسفة اليونانية وأثرها في الفلسفة الاسلامية وعن حركة الترجمة والنقل من اليونانية الى العربية بواسطة السريان، يجدون في هذا السفر مادة غزيرة لا يمكنهم أن يستغنوا عنها مطلقا . . .

وله كتاب آخر وهو عظيم الخطر في العلوم الاسلامية اعنى به ما كتبه عن مصاحف القرآن الكريم. كان الاستاذ نولدكه قد الف في أواسط النصف الثاني من القرن التاسع عشر كتاباً عن تاريخ القرآن كان له الدوى العظيم والأثر البعيد في أندية العلماء في أوربا، ولما احتاج الكتاب الى تنقيح وزيادات وكان الاستاذ نولدكه قد توغل في بحوث اخرى تناوله الاستاذ شوللي Schwally واخرج الطبعة الثانية من كتاب تاريخ القرآن الكريم مع زيادات وملاحظات كثيرة، ولم يكن الكتاب كمل بعد، لذلك اتم برجستريسر ما بدأ به نولدكه وشوللي فدون الجزء الثالث من تاريخ القرآن الكريم وهو كتابه عن المصاحف، وقد رأى الاستاذ برجستريسر أن يبحث في قراءات القرآن وهي مادة لم يكن ليشتغل فيها غيره من كبار المستشرقين، فقضى سنين طويلة يراجع بصبر واناة كل مادون في امهات المصنفات الاسلامية في هذه المادة من كتب مطبوعة ومخطوطة، وكانت نتيجة هذه الأبحاث الطويلة أنه طبع (١) كتاب غاية النهاية في طبقات القراء لشمس الدين ابي الخير محمد الجزري المتوفى سنة ٨٣٣ هـ (٢) كتاب شواذ القراءات لابن خالويه (٣) رسالة باللغة الالمانية عن القراءات القرآنية الشاذة في كتاب المحتسب لابن جنى

Nichtkanische Kran les arten im Muhtasab des Ibn Ginni

وهو آخر مصنف وضعه الأستاذ برجستريسر في حياته، ومما يلفت الأنظار أن هذا الكتاب مقدم الى الدكتور طه حسين

ويجب ألا يغيب عن البال ان الاستاذ برجستريسر قد أتقن ماعدا اللغات السامية: الفارسية والتركية ايضا، وقد وضع جملة مقالات عن آداب هاتين اللغتين نشرت في مجلات المستشرقين في مناسبات شتى

***

كان الاستاذ أنوليتمان (E. Littmann) المستشرق الشهير صاحب المدونات عن الكتابات العربية قبل الاسلام، المعروفة بالخطوط الثمودية واللحيانية والصفوية (راجع كتاب تاريخ اللغات السامية لكاتب هذه السطور ص ١٧٥-١٨٨) بعد أن القى محاضرات

فى الجامعة المصرية فى السنه الدراسية ١٩٢٨ — ١٩٢٩ ولم يستطع الرجوع الى الجامعة بعد ذلك الحين أشار على الهيئات الرسمية بالجامعة المصرية بان يدعو الأستاذ برجستريسر لالقاء محاضرات فى الجامعة المصرية

وقد قوبل الاقتراح ولبى الاستاذ برجستريسر دعوة الجامعة وحضر الى القطر المصرى وكان مجىء برجستريسر حادثاً خطيراً فى حياة الجامعة المصرية اذ كان الاساتذة والمدرسون يقبلون عليه و يحضرون مع الطلاب محاضراته النفيسة ، وكان يلقى فى ذلك العام (١٩٣٠) محاضرات عن التطور النحوى للغة العربية . وكان فى محاضراته الأولى كثير العجمة والابهام فى لغته العربية، وكان يقرأ المحاضرة من الورقة المكتوبة التى كانت أمامه، ثم أخذ بعد جملة أسابيع يتحرر شيئاً فشيئاً من الكراس، وأخذ يرتجل الجمل ارتجالا ويفصح فى الكلام افصاحاً، ثم رجع فى سنة ١٩٣٢ الى مصر والقى محاضراته عن اللهجات العامية فى الموصل . كان يفيض كالبحر الزاخر بلغة عربية فصيحة كانت مفهومة واضحة لجمهرة الطلبة

ويجب ان يقال بكل صراحة إن عدد الحاضرين عند برجستريسر كان فى بادىء الأمر كبيرا ، ثم أخذ ينقص على كر الزمان الى ان انحصر الحاضرون فى طلبة قسم اللغات السامية فقط ، والسبب فى ذلك يرجع الى أن محاضرات برجستريسر كانت فنية قبل كل شىء أى إن الذين لم يدرسوا اللغات السامية لم يفهموا كثيرا مما كان يلقى الاستاذ ، وفوق ذلك فان عقلية برجستريسر كانت دقيقة وعميقة وكانت محاضراته موجهة الى أصحاب الثقافة الراقية قبل كل شىء

لم يكن برجستريسر أكبر الاساتذة سنا، ولكنه كان أعلاهم مقاما وأغزرهم علما وكانوا يوجهون اليه الأسئلة حتى يقفوا على آرائه فى كثير من الموضوعات ومن هنا ادخل برجستريسر فى هيئة التحرير فى المجلة العلمية الشهيرة فى أدبيات المستشرقين وكان Orientalistische Literaturzeitung مدة من الزمن رئيس التحرير فى المجلة الألمانية للعلوم السامية

Philolagie und Linguistik Beitragezur sem.

كان الاستاذ برجستريسر يسرف فى اجهاد نفسه حتى أضناه العمل لانه كان فوق البحث والفحص لتنظيم محاضراته لطلبة الجامعة المصرية ، يمضى ثلاثة أيام كاملة من الصباح الى الغروب فى المكتبة الملكية يجلس الى مائدة فى غرفة منفردة ويراجع مخطوطات فى قراءات القرآن، ثم اضطر الى ملازمة الفراش ،فنهاه الاطباء على اجتهاده المفرط الذى ينذر بالخطر وأشاروا عليه بترك العمل فى المطالعة والتأليف ولكنه لم يحفل بهم

وكان برجستريسر يحب الجبال ، والرياضة فى الجبال، ينزه أسابيع كاملة على خلوة بنفسه . وفى اليوم الثانى عشر من شهر اغسطس المنصرم صعد جبل جلوكز الشامخ فحدثت الفجيعة العظمى اذ زلت قدماه من ذروة الجبل الشاهق وسقط الى هاوية فتوفى على الاثر

وكان قد بلغ الثامنة والاربعين من عمره حين قضى نحبه؟

مصنع الدوبار والاحبال

يورد للقطر المصرى حاجاته

من دوبار وأحبال صنعت من كتان مصرى زرع فى أرض مصرية غزل بأيدى عمال مصريين على ماكينات ميكانيكية حديثة

بأســـــــعار لا تزاحم مطلقاً

أطلبوا أســـعار الجمـــلة والقطاعى

شركـــة مصر لغزل ونسج القطن

بالمحـــلة الكبرى

هذه هى خطوة جديدة تخطوها شركتنا فسيروا معنا — نتقدم بكم دائماً الى الامام